الفصل الثالث:

معركة حطين وفتح بيت المقدس والحملة الصليبية

المبحث الأول:
معركة حطين

تمكن صلاح الدين من تكوين جبهة إسلامية موحدة اتسمت باتساع رقعتها، لكن سيطرة الصليبيين على بعض مدن الساحل الشامي، فضلاً عن حصني الكرك والشوبك، كل يمثل عقبة كأداء في إمكانية الاتصال بين محوري دولته التي ضمت مصر ومعظم بلاد الشام، وجزءاً من أرض العراق يضاف إلى ذلك، أن هذه المدن والموانئ الساحلية تمتعت بمكانة استراتيجية هامة لأن سيطرة الصليبيين عليها جعلتهم على اتصال دائم بوطنهم الأم الغرب الأوروبي [1]، لذلك اهتم صلاح الدين منذ بداية حكمه، بالإغارة على هذه المناطق، بل إن اهتمامه بذلك يرجع أيضاً إلى أيام وزارته في الدولة الفاطمية [2]، وفي الواقع أن صلاح الدين قد ألحق بالصليبيين خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد من جراء تلك الإغارات التي نظمها على مدن الساحل الشامي، الأمر الذي دفع الصليبيين - على ما يبدو - إلى التفكير في تخفيف الضغط على تلك المناطق بتحويل نظر صلاح الدين عنها وذلك بالإغارة على منطقة ساحل الأحمر، هذا فضلاً عن استغلال وجوده في تلك المنطقة وتهديد المقدسات الإسلامية لطعن الإسلام في أقدس بقاعه [3] إلا إن الأحداث كانت تجرى بسرعة في مصلحة صلاح الدين.

أولاً: مقدمات معركة حطين:

1 - وفاة بلدوين الخامس وتأثيرها على أوضاع الصليبيين:

توفي الملك بلدوين الخامس في شهر جمادى الآخرة عام 582هـ/شهر آب عام 1186م بعد شهور من توليته، فبرزت من جديد مشاكل الصليبيين الداخلية إذ كانت وفاته إيذانا بصراع حاد بين الأمراء حول الفوز بعرش المملكة وقد بدأت أولى كانا على مقربة من الملك عند وفاته في عكا، وظل المعارضون لوصاية ريموند الثالث في حبك المؤامرات حتى نجحوا أخيراً في سحب الوصاية منه، وتحويل المُلك من الطفل إلى أمه سيبيلا وأوكلوا إليها اختيار الملك الجديد؛ لأنها لا تستطيع أن تحكم كامرأة، وسلمَّت سيبيلا تاج الملك إلى زوجها جاي لوزينان وفق ما أراده المعارضون لريموند الثالث[4].

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 157.
(2) المصدر نفسه ص 157.
(3) المصدر نفسه ص 165.
(4) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 140.

2 - استفادة صلاح الدين من الظروف التي تمر بها مملكة بيت المقدس:

في الوقت الذي كان صلاح الدين يعمل جاهداً لتكوين قوة عسكرية مزودة بالمؤن والعتاد، واستعداداً لخوض معركة فاصلة ضد الصليبيين، كان يتجنب الاشتباك مع الصليبيين في أكثر من جبهة واحدة ولا يمكن عدوه من تعبئة قواه وتوحيد صفوفه رداً على تعبئة القوات الإسلامية، فأرسل في سنة 583هـ/1187م إلى أهل حلب يأمرهم بمصالحة بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ليتفرغ لجهاد الصليبيين من جانب واحد [1].

كما عمد صلاح الدين الذي عرف بمهارته العسكرية أيضاً إلى استغلال تلك الظروف العصيبة التي كانت تمر بها مملكة بيت المقدس عقب تتويج جاي لوزجنان الذي تنازلت له زوجه عن الحكم وأصبح ملكاً لبيت المقدس، بعد أن خلعت التاج عن رأسها ووضعته على رأسه قائلة: زوجي أقدر وهو أحق بالملك وأجدر [2] وفشل القومص ريموند الضجلي أمير طرابلس في الفوز بذلك المنصب، عدم رفض فرسان الداوية استقلاله بالحكم وطالبوه بالعمل بالوصية التي كانت تقضي له بحق الوصاية فقط الأمر الذي جعله يلقي بنفسه بين أحضان صلاح الدين طالباً منه مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداوية، وأجاب صلاح الدين نداءه وأمده بالمعونه اللازمة وبذلك استطاع أن يضم إليه حليفاً جديداً من الصليبيين، مكوناً بذلك ثغرة كبيرة في صفوف الصليبيين [3] وبالفعل أوشك الصدام المسلح أن يحتدم بين الملك جاي وبين ريموند، حيث عسكر ريموند في طبرية، وأقام هناك في زي المتطاول المتفاخر بعد أن ضم حوله عدداً كبيراً من الصليبيين، وحث العزم السلطاني على قصدهم ليرد إليه الملك [4]. كما قام ملك بيت المقدس أيضاً بحشد جيش عظيم لمهاجمة طبرية لولا تدخل بعض الأمراء لتهدئة الموقف ومطالبة الطرفين بالاتحاد لمواجهة ذلك الاستعداد الهائل الذي أعده صلاح الدين لهم، الأمر الذي اضطر الملك لوزجنان إلى المسير بنفسه إلى القومص ريموند الصنجلي، لاسترضائه ومصالحته [5].

وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن القول بأن صلاح الدين قد جنى من جراء تدخله في شؤون الصليبيين بمساعدة أحدهما على الآخر، ثماراً أهمها ذلك الاختلاف الكبير في

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 175.
(2) الفتح القسي ص 67، 68، صلاح الدين والصليبيون ص 175.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 175.
(4) صلاح الدين والصليبيون ص 176.
(5) كتاب الروضتين نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 176.

وجهات النظر بين ريموند الصنجلي وبعض الأمراء الصليبيين وفي مقدمتهم أرناط صاحب حصن الكرك، ولعل هذا الأمر هو السبب الذي جعل المؤرخ ابن الأثير يصف هذا التحالف بين صلاح الدين وريموند الصنجلي رغم قصر مدته بأنه من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنفاذ البيت المقدس منهم[1] وهكذا عقد صلاح الدين مع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، هدنة منفصلة معه إما بناء على طلب منه، وإما بدعوة من صلاح الدين، ليطمئن على خطوطه الخلفية ويتفرغ للقتال في الجنوب[2]، ووسع ريموند الثالث مدى اتفاقيته مع صلاح الدين مضيفاً إليها. حماية منطقة الجليل وبذلك يكون قد فتح الطريق لصلاح الدين للولوج بين الأردن وفلسطين[3].

3 - رينولد شاتيون يُنقض مجدداً الهدنة مع المسلمين:

أثار تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، غضب رينولد شاتيون الذي كان في هدنة مع صلاح الدين واشتهر بالتفكير المنفرد وبفضل ما تنطوي عليه الهدنة من بذل الحماية، صارت القوافل التجارية تتردَّد بين مصر وبلاد الشام، مجتازة الأراضي الصليبية بأمان[4]، ولا شك بأن ذلك عاد بالفائدة على رينولد شاتيون نفسه، نظراً لما يفرضه من ضرائب ومكوس عليها كما يبدو أنه لا يستطيع الحياة دون أن ينهب ويسرق، فقام بنقض هدنته مع صلاح الدين عام 582هـ/أواخر عام 1186م حين أوقف قافلة تجارية كبيرة مارَّة بأرض الكرك، في طريقها من مصر إلى بلاد الشام، واستولى عليها، فقتل حرَّاسها، وأسر بعض الجند، كما قبض على من في القافلة من تجار وعائلات وحملهم إلى حصن الكرك [5]، لم تلبث أنباء الاعتداء أن وصلت إلى مسامع صلاح الدين، ولحرصه على احترام المعاهدة، أرسل إلى رينولد شاتيون ينكر عليه هذا العمل، ويتهدَّده إن لم يُطلق سراح الأسرى ويعيد الأموال، غير أن صاحب الكرك رفض استقبال رسله، وعندما وجد صلاح الدين إعراضاً من جانب رينولد، أرسل إلى الملك جاي لوزينان شاكياً ومطالباً بالنصح لرينولد بإعادة الأسرى والأموال، لبّى جاي دعوة صلاح الدين لكنه أخفق في الضغط على رينولد [6]، وكان لهذا الأسلوب الذي استخدمه صلاح الدين في موضوع الأسرى الذين وقعوا بيد أرناط صاحب حصن

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 176.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 142.
(3) المصدر نفسه ص 143.
(4) مفرج الكروب (185/2)، تاريخ الأيوبيين ص 142.
(5) الكامل في التاريخ (18/10، 19)، تاريخ الأيوبيين ص 142.
(6) تاريخ الأيوبيين ص 142.

الكرك ومطالبته إياه بإطلاق سراحهم ورد أموالهم دون استخدام القوة كان له الأثر الأكبر في إدخال الخلاف وعدم الثقة بين ملك بيت المقدس وأرناط الذي لم يستجب لرجائه باحترام الهدنة المعقودة مع صلاح الدين وأصبح الملك الصليبي يتشكك في نوايا أرناط وطمعه في الانفراد بحكم تلك المنطقة، وإن كلاً منهما بات حذراً من الآخر[1].

كانت هذه التحالفات ونقضها نقطة الانطلاق الأولى لمعركة حطين [2]، ذلك أن تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، وأتاح له مجالاً للتدخل في السياسة الداخلية للصليبيين وإن تجديد تحالفه مع كل من ريموند الثالث وبوهيموند الثالث حرماً مملكة بيت المقدس من مساعدة أقوى إمارتين صليبيتين في الشام، وهما إمارة طرابلس، وإمارة أنطاكية، وهكذا نجح صلاح الدين في شقّ الصف الصليبي، وفي المقابل فإنه نجح في توحيد الصف الإسلامي، فأعدَّ الجيوش الإسلامية في مصر والجزيرة والموصل والشام، معنوياً وعسكرياً، للمعركة التي أرادها فاصلة [3]، وعندما اكتملت استعدادات التجهيز، خرج صلاح الدين من دمشق في شهر محرم 583هـ/شهر آذار 1187م على رأس جيش كبير متجهاً نحو الجنوب فوصل إلى رأس الماء إلى الشمال الغربي من حوران [4]، ثم اتجه إلى بصرى [5] ليستقبل قافلة الحجاج التي كان من عدادها أخته وابنها، ويضمن في الوقت نفسه عدم تعرض رينولد لهم؛ لأن التقارير التي وصلت إليه، أشارت إلى تربص حاكم الكرك بالحجاج [6]، وبعد أن اطمأن إلى وصول القافلة وسلامتها، شرع في مهاجمة الكرك، وإذ علم رينولد شاتيون (أرناط) بوجوده في المنطقة تراجع إلى حصنه، وكان صلاح الدين قد ترك ابنه الأفضل نور الدين علي في رأس الماء ينتظر وصول العساكر التي استدعاها للجهاد[7]، وكان حركة صلاح الدين باتجاه الكرك تحقق هدفين:

الأول: التمويه على هدفه الحقيقي، وهو مهاجمة مملكة بيت المقدس.

الثاني: إخافة رينولد شاتيون (أرناط) ومنعه من الذهاب إلى مملكة بيت المقدس.

سّرح صلاح الدين عساكره في المنطقة فراحوا يعيثون فيها، ثم قصد الشوبك،

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 176.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 143.
(3) المصدر نفسه ص 143.
(4) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة.
(5) بصرى: من أعمال دمشق، وهي قصبة حوران.
(6) الفتح القسي في الفتح القدسي ص 58، 59.
(7) تاريخ الأيوبيين ص 143.

وفعل فيها مثلما فعل بالكرك وظلَّ في الأردن شهر صفر ربيع الأول 583هـ/شهر نيسان وأيار 1187م تغطية للحشود التي كانت تتجَّمع حول ابنه الأفضل في رأس الماء [1].

4- وقعة صفورية:

في الوقت الذي كان صلاح الدين فيه معسكراً بالقرب من حصن الكرك والشوبك لحماية الحاج من اعتداءات الصليبيين، عمد إلى إرسال قوة استطلاعية انتخب أفرادها انتخاباً، وأسند قيادتها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، وبدر الدين دلدرم بن ياروق أمير عسكر حلب، وصارم الدين قايماز النجمي أمير عسكر دمشق، لتقوم بالإغارة على ممتلكات العدو، لإضعاف معسكراته وكشف مخططاته فسارت هذه السرية المدججة بالسلاح والعتاد، باتجاه صفورية. وقد حرص قوادها على أن يكون مسيرها على قدر كبير من السرية والخفاء، فكان سيرهم إليها في الجزء الأخير من الليل، على أن يكون هجومهم عليها في الصباح الباكر، وبالفعل فقد نفذت تلك الخطة بدقة تامة "، وصبحوا صفورية وساء صباح المنذرين [2].

وأما الصليبيون الذين كانوا ينعمون بنوم هادئ في ذلك الوقت فإنهم قد استيقظوا على أصوات السيوف والرماح وأسرعوا إلى لم شعثهم وتجميع قواهم لمواجهة ذلك الهجوم الإسلامي المفاجئ، والتقى الجمعان، ودارت بينهما معركة رهيبة، انتهت بانتصار إسلامي مظفر، وسقط معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى، وكان من حملة القتلى، مقدم الاسبتارية وعدد كبير من أبرز فرسانهم ونجا مقدم الداوية بصعوبة [3] بالغة.

ومما زاد الطين بلة أنه عندما تجرأت قوة صليبية أخرى على الإسراع إلى صفورية لنجدة إخوانهم كانت المعركة قد انتهت فأسر المسلمون تلك النجدة عن آخرها، وعاد المسلمون من هذه المعركة سالمين غانمين [4]. وكانت انتصارهم في هذه المعركة؛ باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامين الحركات [5]. وهكذا كبد المسلمون الصليبيين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وألقت هذه المعركة الرعب في قلوب الصليبيين، وجعلتهم يدركون خطورة ذلك التجمع الإسلامي الرهيب الذي أعده

---

(1) المصدر نفسه ص 144.
(2) كتاب الروضتين (75/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 178.
(3) مفرج الكروب (187/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 178.
(4) مفرج الكروب (187/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 179.
(5) كتاب الروضتين (76/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 179.

صلاح الدين لجهادهم [1].

5 - الاستعدادات التي سبقت معركة حطين:

استبشر صلاح الدين الذي كان آنذاك يعسكر بالقرب من حصن الكرك بذلك النصر الذي حققته تلك السرية الإسلامية في معركة صفورية، فترك الكرك والشوبك، وسار مسرعاً على رأس جيشه في اتجاه العدو وعسكرا في عشترا [2]، واجتمعت حوله العساكر الإسلامية بأعداد هائلة حتى "غصى بها الفضاء " على حد قول ابن واصل [3] وفي عشترا قام بعرض عسكره، فكان في اثني عشر ألف مقاتل [4] ثم رتب جيشه طبقاً لنظام المعركة المعتاد، فجعل ابن أخيه تقي الدين عمر في الميمنة ومظفر الدين كوكبوري في الميسرة وكان هو في القلب، وبقية الجيش فرقه على الجناحين، استعداداً للحرب [5].

أ - استعدادات الصليبيين:

ورداً على ذلك التجمع الإسلامي العظيم، فإن الصليبيين لما سمعوا باجتماع كلمة الإسلام عليهم ومسير ذلك الجيش الإسلامي إليهم، علموا أنه قد جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وأن كيانهم زائل لا محالة، فاجتمعوا واصطلحوا، وحشدوا وجمعوا، وانتحوا. فصالح القومص الملك جاي، بعد أن دخل عليه ورمى بنفسه عليه [6]. ومن ثم أصدر الملك جاي الأمر بالتعبئة العامة، ومعنى ذلك أنه لابد أن يتقدم لحمل السلاح كل الرجال القادرين ولا يلجأ الملك إلى ذلك إلا عند الضرورة القصوى [7]. وحشد الصليبيون حشوداً كبيرة، ورفعوا صليب الصلبوت، لتجتمع الناس حوله، وقد اكتملت عدة ذلك الجيش بعد أن تم توزيع الأموال التي بعثها ملك إنجلترا هنري إلى الملك جاي، والتي أمر بإنفاقها على الرجال وأما بالنسبة لتقدير عدد الجيش الصليبي الذي ظل معسكراً في صفورية بعد هزيمته من تلك السرية الإسلامية فإن المؤرخين المعاصرين ذكروا أن

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 179.
(2) عشترا: موضع بحوران من أعمال دمشق.
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 179.
(4) كتاب الروضتين (86/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 180.
(5) وفيات الأعيان (174/7)، صلاح الدين والصليبيون ص 180.
(6) كتاب الروضتين (76/2).
(7) الشرق الأدنى في العصور الوسطى ص 84.

عدده بلغ زهاء خمسين ألفا أو يزيدون [1]، وبعضهم رجح أنه يبلغ عشرين ألفاً [2].

ب - اختيار صلاح الدين لخطة المعركة الفاصلة:

لما علم صلاح الدين باجتماع الصليبيين في صفورية عقب هزيمتهم من السرية الإسلامية في هذا المكان، استشار قواده فيما يفعل، فأشار أكثرهم بترك اللقاء، واتباع الطريقة السابقة من إغارات متكررة، وتكبيد العدو خسائر حتى تضعف مقاومته ثم إنزال الضربة القاضية بالصليبيين وأشار الفريق الآخر بالتوغل في بلاد الصليبيين والاشتباك معهم في معركة فاصلة [3].

وهنا تبدو لنا حنكة صلاح الدين العسكرية، إذ اختار الخطة الثانية القائمة على الاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، إذ يظهر أن صلاح الدين أدرك أن معظم القوات التي تجمعت عنده في ذلك الوقت جاءت من أماكن بعيدة من مصر ودمشق وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها، وأن هذه العساكر القائمة على نظام الإقطاع الحربي - كما سبق أن رأينا - لها التزامات في إقطاعاتها - الأمر الذي قد يدفعها بعض الأحيان إلى طلب الاستئذان منه والعودة لقضاء حوائجها [4] هذا بالإضافة إلى أن صلاح الدين ربما قصد باتباع تلك الخطة استغلال ذلك الانشقاق الذي حدث في صفوف الصليبيين، نتيجة وفاة الملك بلدوين الخامس، وتتويج الملك جاي لوزجنان والذي عده أحد الباحثين، سبباً حرمت من أجله مملكة بيت المقدس من معونة أقوى إمارتين صليبيتين بالشام هما إمارة طرابلس، وإمارة أنطاكية [5].

وهكذا أصبح الموقف بين صلاح الدين والصليبيين على أشده، وبات الطرفان كل منهما يتوق إلى الاشتباك مع الصليبيين في معركة فاصلة، كان يدرك أن تمركزهم في صفورية يعطيهم مكانة عظيمة في القتال، وذلك أن صفورية تعتبر في أحسن المواقع الملائمة لإقامة المعسكرات وذلك لما يتوافر بها من المراعي والمياه وغيرها من الموارد الطبيعية اللازمة لذلك[6]، لهذا عمد إلى استدراج الصليبيين إلى المكان المناسب الذي يستطيع فيه إنزال الهزيمة بهم، هذا بالإضافة إلى أنه على الرغم من ذلك كان يريد

---

(1) كتاب الروضتين (76/2).
(2) الشرق الأدنى في العصور الوسطى ص 84.
(3) تاريخ ابن خلدون نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 181.
(4) الحركة الصليبية (799/2).
(5) تاريخ الأيوبيين ص 182.
(6) الحركة الصليبية (804/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 182.

أن يجبرهم على المسير إليه حتى يصلوا متعبين، ويكون هو مدخراً جهده وجهد رجاله [1]، لذلك أخذ صلاح الدين يعد عدته للقيام بعمل يستطيع اجتذاب الصليبيين من معسكرهم في صفورية والنزول إلى المكان الذي يختاره فأخذ كل يوم يرسل جماعة من رجاله، لمباغتة الصليبيين والنكاية بهم، محاولاً بذلك استدراجهم إليه، غير أن تلك الغارات المتكررة لم تؤثر على الصليبيين، فلم يتركوا مركزهم في صفورية فرأى صلاح الدين الهجوم على طبرية ذاتها، لأن الصليبيين متى رأوا هجومه ذلك بادروا بالوصول إليه، وبذلك يكون قد تحقق له ما قصده [2].

ج - توجه صلاح الدين إلى طبرية:

أدرك صلاح الدين بهجومه على طبرية، بأنه يمكنه إثارة ريموند أمير طرابلس المشهور بشدة الغيرة [3] بالإضافة إلى أن صلاح الدين، كان يعلم أن نزوله في ذلك الموضع يستطيع أن يرصد الطريق المؤدي إلى طبرية، ويسيطر في الوقت ذاته على الدروب التي تجتاز الحافة الشرقية إلى طبرية وتنتهي إلى الماء [4]. في حين يبقى الصليبيون عند خروجهم من صفورية، وتقدمهم إليه في منطقة وعرة لا تتوفر فيها المياه [5] وفي يوم الخميس 23 ربيع الأول سنة 583هـ/2 يوليه 1187م أصدر صلاح الدين أوامره إلى الجانب الرئيسي من جيشه بالتقدم إلى طبرية ومهاجمتها إلى القلعة وامتنعوا بها [6]. وما كادت أخبار ذلك الهجوم تصل إلى أسماع الصليبيين، حتى جن جنونهم، ودعا الملك جاي إلى مجلس حرب [7] فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم من التوغل في طبرية، في حين أشار ريموند صاحب طرابلس على الملك بالبقاء في موضعه بصفوريه، قائلاً له: إن طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل، وبقي القلعة، وفيها زوجتي، وقد رضيت بأن يأخذ القلعة وزوجتي، وما لنا بها فيعود، فوالله لقد رأيت معسكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل ذلك العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبرية، لا يمكنه المقام بها إلا بجميع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها

(1) الحركة الصليبية (804/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 182.
(2) كتاب الروضتين (76/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 182.
(3) الشرق الأدنى في العصور الوسطى ص 87.
(4) المصدر نفسه ص 87.
(5) المصدر نفسه ص 87، صلاح الدين والصليبيون ص 182.
(6) الكامل في التاريخ (533/11)، صلاح الدين والصليبيون ص 183.
(7) صلاح الدين والصليبيون ص 83.

وتفتك من أسر منا [1].

وهنا يبدو أن سياسة صلاح الدين في إيقاع الخلاف في صفوف الصليبيين قد أتت أكلها، حيث لقي رأي ريموند هذا معارضة شديدة من كل من أرناط صاحب الكرك، وجيرار مقدم الداوية اللذين اتهماه بالخيانة والانحياز إلى المسلمين، حيث رد عليه أرناط قائلاً: قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم. واستطاع أرناط وجيرار التأثير على الملك جاي الذي أصدر أوامر إلى الجند بالمسير إلى طبرية وبدأ الجيش الصليبي زحفه من صفورية يتقدمه ريموند في ظروف سيئة للغاية، فروح الصليبيين المعنوية منحطة، وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار التقدم نحو طبرية، فساروا مكرهين [2]. هذا بالإضافة إلى ما تعرض له ذلك الجيش الصليبي في طريقه من متاعب وخسائر بسبب الكمائن التي نصبها صلاح الدين لهم أثناء سيرهم، فضلاً عن حرارة الجو، ووعورة الطريق وانعدام الماء. وإزاء هذه الظروف القاسية حل بالجيش الصليبي أثناء سيره من صفورية إلى طبرية، انفصال كبير، حيث لم تستطع مؤخرته مجاراة سير بقية الجيش والاتصال بالملك في الوسط، الأمر الذي اضطر الملك جاي إلى إقامة معسكره، قبل الوصول إلى طبرية، على الرغم من تلك المحاولة التي قام بها ريموند أمير طرابلس الذي كان في المقدمة، لحث الصليبيين على التقدم للوصول إلى المياه. مما أدى إلى تذمر ريموند من ذلك التصرف، وإدراكه بأن الهزيمة حاصلة لا محالة [3].

والواقع أن هذه الأوامر اتصفت بالتهور، ودلَّت على انعدام التفكير العسكري السليم لدى القادة الصليبيين الذين غلبت عليهم العاطفة الدينية المتزمتة، لأنها أوقعت الملك، والمملكة، والجيش الصليبي في فخ صلاح الدين، الذي علقَّ، عندما علم بتحركهم بقوله: قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجد الجديد، والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صَّحت كسرتهم، وقُتلت وأسرت أسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع ولا عن فتحها وازع [4].

ورتب صلاح الدين رجاله في تلك الليلة، وسار هو على رأس جيشه لملاقاة الصليبيين على سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين وهي منطقة على هيئة

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 183.
(2) الحركة الصليبية (ج806/2).
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 184.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 77 نقلاً عن العماد الأصفهاني.

هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر، ولها قمتان مما جعل العرب يطلقون عليه اسم قرون حطين، وبوصول الصليبيين إلى تلك الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك والتعب، واشتد بهم العطش بعد أن حال جيش صلاح الدين بينهم وبين الوصول إلى الماء [1] والتقى الجمعان على سهل جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل دون تصادمهما ذلك اليوم [2] وفي صباح الجمعة 24 ربيع الآخرة 583هـ/1187م.

تحرك الجيشان وتصادما بأرض تسمى اللوبيا، واستمر القتال إلى أن حجز الظلام بينهما، وبات كل فريق في سلاحه [3]. والواقع أن جيش صلاح الدين قضى تلك الليلتين ينعم بكافة الوسائل التي تعينه على القتال، فقد كان يعسكر في منطقة سهلة غنية بالمراعي والمياه. أما الجيش الصليبي، فقد ازداد بلا شك خلال تلك المدة شقاءً وإنهاكاً، بسبب إقامة معسكره على منطقة وعرة جداً عديمة المياه وفي جو شديدة الحرارة، ويبدو أن صلاح الدين، قد استغل توقف القتال تلك الليلة، ليكمل استعداداته لمهاجمة العدو الذي لجأ إلى سفح جبل حطين، ليعصمهم من المهالك ومن ثم المبيت في جو معتدل يخفف عنهم شدة الحرارة والعطش وعلى الرغم من أوامر الملك جاي التي كانت تقضي بأن يندفعوا إلى أسفل التل ليؤدوا واجبهم نحو الصليب والعرض، إلا أنهم اعتذروا بشدة العطش وإنهم لا يستطيعون الحرب، فاستغل صلاح الدين ذلك، ورتب جيشه ورسم له الخطط، وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، كما يقول ابن الأثير [4].

ثانياً: أحداث المعركة:

اكتشف الصليبيون في صباح يوم السبت 24ربيع الآخر/583هـ، بأنهم محاصرون بعيداً عن المياه، فنزلوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت معركة رهيبة فقد تقدم الجيش الإسلامي الذي أكمل استعداداته للمعركة الفاصلة وفي المقابل تحرك الجيش الصليبي واضعاً في ذهنه الوصول إلى طبرية لعله يرد الماء، إلا أن صلاح الدين ببراعته الحربية أدرك مقصودهم، ووقف بعسكره في وجوههم وأخذ صلاح الدين يطوف بين الصفوف، يحرض الرجال على الجهاد ويأمرهم بما ينفعهم وينهاهم عما يضرهم، وهم له طائعون [5].

---

(1) الكامل في التاريخ (534/11)، صلاح الدين والصليبيون ص 185.
(2) النوادر السلطانية ص 76.
(3) كتاب الروضتين (81/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 185.
(4) الكامل في التاريخ (535/11).
(5) صلاح الدين والصليبيون ص 186.

1 - بداية الهجوم الإسلامي:

وبدأ الهجوم الإسلامي على الصليبيين فاستمات المسلمون في القتال وشددوا هجماتهم على الأعداء مدركين أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد الروم، وأنهم لا ينجيهم إلا الله [1]. وأمام ذلك الهجوم الإسلامي الرهيب، أدرك الصليبيون أن نهايتهم قد حانت، وأنه لا ينجيهم من صلاح الدين سوى الفرار أو الاستسلام، ولم يستطع النجاة سوى ريموند أمير طرابلس الذي رأى عجز الصليبيين عن مقاومة الجيش الإسلامي، فاتفق مع جماعة من أصحابه وحملوا على من يليهم من المسلمين، ففتح المسلمون لهم طريقاً يخرجون منه، وبعد خروجهم التأم الصف مرة أخرى [2].

ويبدو أن خروج ريموند تم بموافقة صلاح الدين، الذي أصدر أوامره إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، مقدم تلك الناحية التي حمل عليها ريموند، وقصد صلاح الدين بذلك إدخال الضعف واليأس في نفوس الصليبيين عندما يعلمون بهروب ريموند وجموعه، كما لا يستبعد أن يكون ذلك الأمر قد تم باتفاق بين ريموند وصلاح الدين، بدليل أن بعض الصليبيين عندما تعرضوا لذلك الهجوم الشامل من المسلمين، ألقوا أسلحتهم، وجاءوا إلى معسكر المسلمين مستسلمين [3]، ومما زاد الطين بلة، أنه في الوقت الذي تخلى فيه ريموند عن أبناء ملته، كان بعض المتطوعة المسلمين قد أشعلوا النيران في الأعشاب والأشواك اليابسة التي تكسو تلك المنطقة، وكانت الريح تهب باتجاه الصليبيين، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار، والدخان، وحر القتال. الأمر الذي اضطر معه الصليبيون إلى التراجع إلى أعلى الجبل، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به، فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات، ومنعوا عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة واحدة سوى خيمة الملك [4].

2 - الحرب النفسية عند صلاح الدين:

ويبدو أن صلاح الدين كان في تلك المعركة الحاسمة، يعمد إلى القضاء على الصليبيين وإدخال الوهن في نفوسهم بكل الوسائل، ولم يكن همه مقصوراً على القتال المباشر فقط، بل كان يستخدم الحرب النفسية للتأثير على العدو، والدليل على ذلك أنه بعد أن حصر الصليبيين في أعلى جبل حطين، ركز اهتمامه على الاستيلاء على

---

(1) النوادر السلطانية ص 186.
(2) الكامل في التاريخ (535/11).
(3) مفرج الكروب (19/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 186.
(4) الكامل في التاريخ (535/11، 536)، صلاح الدين والصليبيون ص 187.

صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت، والذي يذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم [1]، لأنه كان يعلم أن الاستيلاء عليه بعد أعظم سلاح لتحطيمهم نفسياً ومعنوياً وبالفعل، فما أن تمكن من أخذه حتى حل بالصليبيين البوار وأيقنوا بالهلاك وتقدم المسلمون نحو قمة الجبل والصليبيون يتراجعون أمامهم، ويتساقطون أسرى وقتلى، حتى لم يبق مع الملك الصليبي الذي وصل إلى أعلى التل سوى فئة قليلة لا يتجاوز عددها مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين الشجعان [2].

وذكر ابن الأثير على لسان الملك الأفضل ابن صلاح الدين أن الصليبيين لما تراجعوا على رأس ملكهم إلى أعلى التل حملوا حملة قوية على من بإزائهم من المسلمين، وكادوا يزيلونهم عن أماكنهم، إلا أن المسلمين عادوا فردوا على تلك الحملة، واستطاعوا إعادة الصليبيين مرة أخرى إلى أعلى الجبل، مما جعل الملك الأفضل يعبر عن فرحته بذلك النصر بقوله: "هزمناهم" وعاد الصليبيون مرة أخرى وحاولوا دحر المسلمين الذين ردوا عليهم بحملة أقوى أرجعتهم مرة ثالثة إلى أعلى التل، فعاد الملك الأفضل وعبر عن فرحته بذلك النصر مرة أخرى بقوله: هزمناهم.

وهنا تبدو لنا مهارة صلاح الدين الحربية وخبرته في ميادين القتال، إذ كان يرى أن الهزيمة لن تتم على الصليبيين إلا بسقوط قيادتهم قتلاً وأسراً، فأجاب ابنه قائلاً: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، يقصد خيمة الملك. ثم أخذ في تشديد هجماته وما هي إلا لحظات حتى سقطت تلك الخيمة، فنزل صلاح الدين وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه [3].

3 - خسائر الصليبيين في حطين:

والواقع أن ما فقده الصليبيون في هذه المعركة من قتلى وأسرى يعتبر من أفدح الكوارث التي حلت بهم ولم ينج إلا عدد قليل من المحاربين بالإضافة إلى من نجا من جند المؤخرة بقيادة باليان إبلين، وريجنالد صاحب صيدا، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب صيدا، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب طرابلس [4] وتساقط معظم الجيش الرئيسي بقيادة الملك جاي لوزجنان فقد تساقطوا في أيدي المسلمين قتلى وأسرى، وكان

---

(1) كتاب الروضتين (78/2).
(2) مفرج الكروب (191/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 187.
(3) الكامل في التاريخ (536/11)، صلاح الدين والصليبيون ص 188.
(4) الشرق الأدنى في العصور الوسطى ص 98، صلاح الدين والصليبيون ص 188.

على رأس الأسرى الملك جاي لوزجنان فقد تساقطوا في أيدي المسلمين قتلى، وأسرى، وكان على رأس الأسرى الملك جاي، وأرناط صاحب الكرك وأوك صاحب جبيل، وهنفري بن الهنفري صاحب تبنين، وابن صاحبة طبرية، وجيرار مقدم الداوية، ومعظم من نجا من الاسبتارية، وغيرهم من أكابر الصليبيين[1].

4 - صلاح الدين يصلى صلاة الشكر ويستقبل الملوك الأسرى:

أمر صلاح الدين بأن تضرب له خيمة، فتم له ذلك، فنزل فيها، وصلى لله تعالى شكراً على هذه النعمة التي درج الملوك من قبله على تمني مثلها، وماتوا بحسرتها [2]. ثم أحضر ملوك الصليبيين، ومقدميهم واستقبلهم استقبالاً حسناً، وأجلس الملك جاي إلى جانبه وأجلس البرنس أرناط صاحب الكرك إلى جانب الملك، وبادر صلاح الدين بتقديم إناء به ماء مثلج للملك جاي، فشرب منه، وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب، وعندئذ غضب صلاح الدين من ذلك، وخاطب الملك مؤكداً له بأن أرناط لم يشرب الماء بأذنه فينال أمانه. ثم التفت إليه وذكره بجرائمه وخيانته وقال له: كم تخلف وتنكث؟ فقال الترجمان عنه أنه يقول: قد جرت عادة الملوك بذلك [3]. فأوقف السلطان صلاح الدين وقال: هأنذا أستنصر لمحمد. ثم عرض عليه الإسلام فأبى، فاستل صلاح الدين سلاحه وضربه فحل كتفه، وتمم عليه من حضر [4]. وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما: لما أراد المسير إلى مكة والمدينة. والثانية: لما أخذ القوافل غدرا. ولما رأى ملك بيت المقدس جاى لوزجنان ذلك المنظر، خاف وظن أن صلاح الدين سوف يثنّي به ولكن السلطان استحضره، وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حده فجرى ما جرى [5].

5 - موقف صلاح الدين من الأسرى:

أحضر صلاح الدين الداوية والاسبتارية، وعرض عليهم الإسلام فمن أسلم استبقاه ومن أبى أمر بقتله [6] وقد بين أبو شامة سبب مقتلهم أن صلاح الدين، قال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقطعان عن المعاداة، ولا يخدمان

---

(1) النوادر السلطانية ص 77، مفرج الكروب (192/2).
(2) مفرج الكروب (194/2).
(3) مفرج الكروب (195/2).
(4) النوادر السلطانية ص 78، 79.
(5) النوادر السلطانية ص 79، مفرج الكروب (195/2).
(6) مفرج الكروب (196/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 190.

في الأسر وهما أخبث أهل الكفر [1]. ومن المعروف أن فرسان هاتين الهيئتين قد تنكروا للمبادئ التي كرسوا حياتهم لخدمتها فخلعوا زيهم الديني الأسود واتشحوا بالوشاح العسكري الأبيض والشارة الصليبية الحمراء، وأصبحوا في زمرة المحاربين وامتلك كل منهم ثلاثة من الخيل، وغلاماً يتبعه، وصار منهم قادة يحملون الألقاب والرتب العسكرية، ويجيدون حبك سياسة الغدر بالمسلمين، ونقض العهود والمواثيق وكان هدف فرسان هاتين الطائفتين الأول والأسمى طعن الإسلام وانتهاك حرماته بشتى الوسائل مهما كلفهم ذلك من ثمن [2].

كان عدد الاسبتارية والداوية حوالى ثلاثمائة وستين رجلاً، والأمر المؤكد أن دورهم الحربي السابق ضد المسلمين كان دافعاً لقتلهم خاصة أنه عرف عنهم عدم احترامهم للعهود والمواثيق، كما أنه أدرك أنه في حالة إطلاق سراحهم سيعودون إلى قتال المسلمين بصورة أشرس من ذي قبل، كما لا نغفل أن منهم من شارك في حملة أرناط الآثمة على الحجاز، وأمام كافة تلك الاعتبارات وأمام تلك الاعتبارات لم يتردد صلاح الدين في الفتك بأولئك الأسرى من الصليبيين وقد تعرض للهجوم من جانب عدد من المؤرخين الغربيين المحدثين الذين نسوا أو تناسوا ما فعله الصليبيون من مذابح فتكوا فيها بالآلاف المؤلفة من المسلمين، وليس هذا بجديد على العقلية الغربية التي نجدها أحياناً تكيل بمكيالين وتبيح لنفسها ما تحرمه على غيرها، ولا نغفل أن ذلك الأسلوب من صلاح الدين جاء استثناء لسياسة متسامحة بصفة عامة تجاه أعدائه [3]، وأما بقية الأسرى، فقد أمر صلاح الدين بأن يساقوا إلى دمشق حيث احتيط على الأمراء، وبيع عامة الفرسان والجند الصليبيين في الأسواق بأثمان [4] زهيدة، ودخل القاضي ابن أبي عصرون دمشق وصليب الصلبوت منكس بين يديه، وعاد السلطان إلى طبرية [5]. أما ريموند الثالث أمير طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة - كما سبق أن ذكرنا - وصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياماً قليلة، حيث مات بها غيظاً وحنقاً مما جرى على الصليبيين خاصة وعلى دين النصرانية عامة [6].

ثالثاً: أسباب الانتصار في معركة حطين:

(1) كتاب الروضتين (79/2).
(2) التاريخ الحربي المصري ص 186، حسان سعداوي ص 186.
(3) الحروب الصليبية العلاقة بين الشرق والغرب ص 219.
(4) كتاب الروضتين (82/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 790.
(5) مرآة الزمان نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 190.
(6) الكامل في التاريخ (53/3 - 55)، صلاح الدين والصليبيون ص 191.

1 - الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب:

لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي رحمه الله أن يوحد الأمة ويجمعها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والجهاد في سبيل الله، وتحرير البلاد الإسلامية، فأصبحت الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق تحت إمرته وقيادته، وحشد لهذه المهمة العلماء والفقهاء والجيوش والألوف من المجاهدين وفي مقدمتهم العلماء والفقهاء يحرضون المقاتلين على القتال وكون جيشاً برياً قوياً وأنشأ أسطولاً بحرياً مصرياً وأنفق عليه أموالاً طائلة [1]. قال ابن شداد: إن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته، ولزومهم قانون خدمته، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهاد والاجتهاد من إقامة قانون الجهاد، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها، واجتمعوا إليه بعشترا في التاريخ المذكور 24 ربيع الثاني 583هـ ورتبهم واندفع بهم قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة... وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة [2].

لقد كان الإعداد والاستعداد فقد اختار الرماة، وزودهم بالنبال الكافية، الكثيرة، فملأ حياتهم بها، وقد بلغ ما فرقه على الرماة من نبال أربعمائة جمل، ورصد حمولة سبعين ناقة في ساحة القتال وميدان المعركة، وجعل هذه النوق المحملة بالسهام، لمن تنفذ سهامه أن يأخذ منها ما يحتاج ضماناً لاستمرار القتال والرمي وعدم التوقف فيه حتى يتنزل النصر بإذن الله سبحانه وتعالى [3] وقد خاض صلاح الدين المعركة بجيش قوي ومهارة حربية منقطعة النظير، فضلاً عن اختياره لمكان المعركة وزمن وقوعها، حيث عسكر بجيشه على طبرية حائلاً بين العدو وبين الماء، كما أعلن جهاده في شهر يولية الذي يعد أشد شهور السنة حرارة، وأقلها ماء في الصهاريج والغدران، حتى أصبح العطش من أقوى الأسلحة بين يديه [4]، لقد مارس صلاح الدين قول الله تعالى: **{وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}** (الأنفال، آية: 60) فقد جمع الجيوش الإسلامية واستدرج الجيوش الصليبية واختار المكان المناسب للمعركة.

---

(1) صلاح الدين الأيوبي، علوان ص 121.
(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 75.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (280/3).
(4) صلاح الدين والصليبيون ص 191.

2 - سنة التدرج ووحدة الأمة:

فقد قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين، وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد - ربما رأى الكثيرون - في ذلك الوقت - استحالة تحقيقه على بساطته، وهو مشروعه الوحدوي التحُّرري، والذي حقق ابنه نور الدين جُزئه الأوَّل وحقَّق صلاح الدين قسماً مُهمَّاً من جُزئه الثَّاني ولذلك نرى انتصار صلاح الدين في حطين تتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرُّرى فلولا متابعته نور الدين لخُطى والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر [1]، الذي تّم بفضل الله وجهود التوحيد، التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا تفرق بين جنس أو لون أو طائفة وإنما جمعتهم الأخوة في الله التي لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام قال الشاعر:

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً ::: الشام فيه ووادي النيل سيان
وأينما ذكر اسم الله في بلد ::: عددت أرجاءه من لبِّ أوطاني [2]

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها في معركة حطين وتوجت بفتح بيت المقدس وأصبح المؤمنون في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى [3].

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المستعمرون من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين لكنهم لهم ينجحوا في تمزيق قلوبهم وظل المسلم محباً لأخيه المسلم ولسان حال كل منهم [4] يقول:

لو اشتكى مسلّم في الصين أرّقني ::: أو اشتكى مسلم في الهند أبكاني
فمصر ريحاني والشام نرجستي ::: وفي الجزيرة تاريخي وعنواني
وفي العراق أكف المجد ترفعني ::: عن كل باغ ومأفون وخّوان
ويسكن المسجد الأقصى وقبته ::: في القلب لا شك أرعاه ويرعاني
أرى بخارى بلادي وهي نائية ::: وأستريح إلى ذكرى خراسان

---

(1) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (375/2).
(2) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة ص 9.
(3) البخاري، ك الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم.
(4) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ص 23.

شـــريعة الله لمـــت شملنـــا وبنـــت ::: لنـــا مقامـــاً بإحســـان وإيمـــان [1]

لم تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ولم تكن النتائج.

3 - بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية:

من الملاحظ أن صلاح الدين الأيوبي كان يدرك أهمية العمل المزدوج توحيد الجبهة الإسلامية وجهاد الصليبيين، نظراً لما بينهما من اتصال وثيق، ومما يذكر هنا؛ أن عام 1186م/582هـ شهد الاتفاق مع عز الدين مسعود صاحب الموصل على أن يكون تابعاً له، ولذلك استطاع أن يخضع الأربعة مدن الإسلامية الرئيسية التي تحكمت في الظهير البري وهي القاهرة، ودمشق، حلب، الموصل، وجميعها سيكون لها شأنها البارز في مشروع الجهاد[2]، من زاوية أخرى، لا تغفل أن الصليبيين وعلى رأسهم ريموند الثالث كونت طرابلس، واتجهوا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين وذلك عام 1185م/581هـ مدتها أربع سنوات ومن الملاحظ أن كلاً من الجانبين احتاج إليها من أجل تنظيم قواته والتقاط الأنفاس.

ومما يدل على بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية مهادنته لبعض القوى الصليبية من أجل المحافظة على قواته وعدم تبديد فعالياتها في عمليات حربية كبيرة مستمرة لاسيما مع الصليبيين ولذا نجده يتجنب طوال تلك الأعوام الدخول في معركة حاسمة معهم ولا يتعجل الأمر، بل يترك عوامل الانقسام والفرقة تلعب دورها في صفوفهم وكانت من أخطر قراراته السياسية قرار "السلام" المؤقت مع الصليبيين، ومن المهم إدراك أن تلك المعاهدات عندما سيتم خرقها ستعطيه المبرر لشن حرب التحرير الشاملة التي من ثمارها معركة حطين وكانت شرارة الصدام بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين أتت من الفارس الصليبي، رينودي شاتيون أو أرناط وهو الفارس الذي أدخلته رعونته التاريخ من أواسع أبوابه، فقد خرق أرناط الهدنة واعتبرها صلاح الدين إعلان حربي صليبي وكان الرد الأيوبي سريعاً وحاسماً كما حدث في معركة حطين 583هـ/1187م [3] ومن بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية أنه قبل الدخول في معركة حطين قام بهذه الأمور:

أ - تنظيم دولته وإقطاعات أمرائه:

كان صلاح الدين بارعاً في تسوياته الرضائية وحفظ التوازنات لإرضاء الجميع

---

(1) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ص 24.
(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 215.
(3) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 217.

وكان يفوض غيره في أمر الإدارة وينشغل كلياً بالمهمات الحربية، وكان يسند الأمور إلى أهلها ويشترط على نّوابه وحكّامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقات الجهاد والاحتفاظ بجيوشهم جاهزة دوماً للقتال وكان يهتم بالولاء المخلص من أتباعه، وقال مّرة للقاضي ابن شداد: إنني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر [1]. وقد كتب منشوراً في الرقة ذات مرة قال فيه: إن أشقى الأمراء من سّمن كيسه وأهزل الخلق وأبعدهم عن الحق مَنْ أخذ الباطل من الناس وسمَّاه الحق، ومن ترك لله شيئاً عوَّضه الله، ومَن أقرض الله قرضاً حسناً وفَّاه ما أقرضه [2] وقد تّم ترتيب الدولة وإقطاعات أمرائه بعد حركة التوحيد التي استغرقت أكثر من عقد من الزمن.

ب - تنظيم أطماع أسرته وإرضاؤها:

وكانت الأسرة الأيوبية هي سنده وشاغله في وقت معاً، وكانت مطامع أفرادها متَّفقة مع مفاهيم عصره، لكنها، لا تتفق مع طموحات صلاح الدين ومفهومه للدولة، كانوا جديدين على عمليات الحكم، يفهمونه على أنه أمتلاك لأراضي الناس ورقابهم؛ لا على أنه إدارة لشؤونهم وتسيير لرعية هم مسؤولون عنها، ومفهومه أتاه - من تتلمذه على يدى نور الدين محمود الشهيد - أمّا أسرته فكان مفهومها مستقى من واقع ما يجري في العصر وقد عانى صلاح الدين من تباين الحالين، وعبّر عن هذا التباين يوم قال لأخيه العادل - وهو يطلب عقد تملكٌ لحلب مقابل 150ألف دينار اقتراضها صلاح الدين منه: أظننت أنَّ البلاد تباع وتشترى، أوَمَا علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحّراس لأموالهم [3] ؟ وقد انتهى الأمر بعد عدد من التغيرات والمبادلات في سنة 582هـ كما يلي:

- أُعيد تعيين أخيه الملك العادل في مصر لا في ملكية قلعة ولا إقطاع كامل؛ ولكن بصفة وصي على العزيز عثمان بن صلاح الدين.
- عين ابن أخيه تقي الدين عمر لإقطاع ميافارقين وديار بكر بعد أن تمَّرد في مصر أو كان يخرج عن الطاعة وعن مصر، وقد أقنعه القاضي الفاضل بعدم التهوُّر.

---

(1) النوادر السلطانية ص 218.
(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 253.
(3) كتاب الروضتين (52/2).

- وتَّم إعادة ابن صلاح الدين: الظاهر غازي لولاية حلب.
- بقي شيركوه بن ناصر الدين محمد في إقطاعه بحمص لم يتغير [1].

ج - العمل الدبلوماسي الخارجي:

فقد أدرك صلاح الدين من خلال تجاربه ومسؤولياته خلال عشرين سنة ونيف أن الإطار الخارجي للأحداث لـه أثره فيها، وقد يمارس عليها تأثيراً خطيراً، وأن القوى المادية التي بنى منها دولته قطعة قطعة لا تكفي لضمان الاطمئنان إلى مسيرة الأمور كما يشتهي ولابَّد من صداقات وهدنات وعلاقات سلام تقوم على القوى الخارجية، بل والمعادية أحياناً فقد أقام في عام 577هـ علاقات حسنة مع القسطنطينية وتّم فتح الجامع الإسلامي فيها وإطلاق حوالي مئتي أسير مسلم عندها وكان من نجاح هذه العلاقة أن زاد العداء بين بيزنطة وفرنجة الشام، مما زاد في اطمئنان صلاح الدين إلى بيزنطة وإلى قبرص [2].

ومن جهة أخرى فإن الأساطيل الإيطالية - أساطيل جنوا وبيزا والبندقية وأما لقى - كانت متصلة الورود والتكاشف على السواحل الشامية، ولها امتيازاتها في المرافئ كلها، وهي تحمل الرجال والسلاح والمال إليهم دون انقطاع، وترجع ببضائع الشرق والتوابل إلى الغرب ودورها الفعَّال هو الذي ساند الإمارات الفرنجية في المشرق على مدى قرابة قرن؛ ولولا أشرعتها ما بقيت هذه الإمارات ولا قويت فكان على صلاح الدين أن يكبح من قوتها ما استطاع، لا يجربها في البحر، فلم يكن لديه الأسطول الكافي لذلك، وإنما بفتح بعض مرافئه لمصالحها، وهو يعرف أنَّ مصلحة هؤلاء التَّجار تغلب تديّنهم وتجعلهم ينسون الحرمان الذي يمكن أن يرميهم به البابا؛ كما أنهم متنافسون فيما بينهم، فاستغل منافساتهم وبذل كثيراً من الجهود لاجتذاب تجّارهم إلى مرافئ مصر مما لا يؤدي إلى تأمين منافعهم، ولكن إلى تأمين منافع الدولة وزيادة مواردها، ومنافع التجَّار المصريين من وراء الفرنج وقد أقام مع البيازنة والبياشنة تجار بيزا - معاهدة سنة 569هـ وتمّ فقرة في كتاب أرسله صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد تؤكّد وجود اتفاق مماثل مع جنوا والبندقية - تقول الفقرة: ما منهم إلاَّ من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده - أسلحة - ويتقَّرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده وكلهم قد تقرَّرت معهم

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 255.
(2) المصدر نفسه ص 256.

المواصلة وانتظمت معهم المسالمة [1].

د - قضية الجهاد:

وهي القضية المركزية التي شغلته حتى وهو في صيده أو في خلواته مع أولاده وكانت الأشهر الأخيرة من سنة 582هـ [2] هي أشهر المكاتبات والرسائل لنوابه وعمّاله والتابعين له في مصر والشام والجزيرة والاستعداد للحرب، وكان لا يجهل بالطبع ما يجري في مملكة بيت المقدس من منازعات، ويعرف معنى الهدنة التي منحها لريموند أمير طرابلس الغاضب على ملك القدس وعلى أية حال كانت جميع الخيوط في يد صلاح الدين في مطلع سنة 583هـ، وساق الله له قانون الفرصة عندما نقض أرناط عهده ومواثيقه، فتعامل معه بسنة الأخذ بالأسباب والتوكل على الله عز وجل.

4 - لا تقاتلوا عني وقاتلوا في سبيل الله إخلاصه العظيم لله عز وجل:

حين سمع صلاح الدين في غزوة حطين مسير الجيش الصليبي إليه قال: جاءنا ما كنا نريد، واجتمع أصحابه وأشاروا بالقيام بالغارات، فرفض وقال: الرأي عندي أن نلقى بجميع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفّرق هذا الجمع إلا بعد الجد والجهاد، وقال: للجند لا تقاتلوا عني ولكن قاتلوا في سبيل الله [3] وهذا تطبيق عملي من صلاح الدين لقول الله تعالى:**{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}** (النساء، آية: 76). فقد خاض صلاح الدين حروبه مع الصليبيين انطلاقاً من مبدأ القتال في سبيل الله[4]، فقد كان يحرص كل الحرص أن يكون القتال في سبيل الله وفي رفع راية الإسلام خفاقة وتنكيس راية الشرك والمشركين من الصليبيين الذين عبدوا الصليب وقدسوه، فقد كان صلاح الدين مخلصاً في جهاده، ومخلصاً في طلب الشهادة، وكان يذّكر قواده وأمراءه بضرورة الإخلاص لله وإرادة وجه الله في قتال الأعداء حتى يثيبهم الله ثواب المجاهدين ويبلغهم منازل الشهداء الغّر الميامين من أمة سيد المرسلين ﷺ ولقد وفقه الله في معاركه وفتوحاته لكثرة إخلاصه كيف لا، وهو إذا فتح بلداً من البلاد لم ينسب النصر له، بل نسبه إلى الله عز وجل، فهو واهب النصر، وناصر المؤمنين الموحدين،

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 257.
(2) المصدر نفسه ص 257.
(3) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك العادل ص 263، كتاب الروضتين (297/3).
(4) صلاح الدين الأيوبي، عبدالله علوان ص 113.

وهازم الكافرين المشركين، فما أن ينتصر المسلمون بقيادته إلا وخّر ساجداً لله تبارك وتعالى شاكراً له على نصره وهكذا حصل منه في حطين وغير حطين [1].

5 - تطبيق الشريعة وبركاتها في دولة صلاح الدين:

يخبرنا التاريخ أن صلاح الدين رحمه الله حينما تولى الإمارة والسلطنة قد تاب إلى الله توبة نصوحاً، وهجر أسباب المعاصي ووسائل اللهو المحرم وندم على كل ما وقع فيه في مراهقته، فأقبل على الله تعالى بتوبة صادقة واشتغل بالطاعات فأكثر من العبادة وقد علم جنوده وغيرهم ورباهم على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والوقوف عند حدوده وهجر معاصيه والإقبال على طاعته وكان يهتم بالشريعة وعلمائها، يطبق الأحكام الشرعية على الرعية ويسوسها بالعدل والسوية ويقمع أهل الضلالة والفساد، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتواضع للناس ولا يحابي محباً ولا يظلم مبغضاً، بل كان يتجاوز عن المبطل إذا خاصمه بالباطل ويحيطه بكرمه وحسن أخلاقه، وكان يأمر أهله وقواده بتوثيق الصلة بالله وبكتابه تلاوة وحفظاً وتدبراً وعملاً، وكان يوصي أبناءه بتقوى الله وطاعته ويذكرهم بالموت وما بعده.

وتأمل معي هذه الوصية لولد من أولاده الذين بلغوا سبعة عشرة ذكراً وهو الملك الظاهر: أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء، والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، أوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في الدولة وأكابرها، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد. فإن الموت لا يبقى أحداً وأحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه، فإنه كريم [2].

إن للحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية، أما الآثار الدنيوية التي ظهرت في دولة صلاح الدين.

أ - الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد نور الدين وصلاح الدين من بعده حرصوا على إقامة شرع الله في أنفسهم وأخلصوا لله تحاكمهم في سرهم وعلانيتهم، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم حتى استخلفهم في الأرض، وأقام صلاح الدين شريعة الله في دولته، فمّكن له الله عز وجل ووطأ له سلطانه وهذه سنة ربانية نافذه لا تتبدل في الشعوب والأمم التي

(1) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 178.
(2) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 180.

تسعى جاهدة لإقامة شرع الله وقد خاطب الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور**{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ}**. أي بدلاً عن الكفار**{كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}** من بني إسرائيل [1]، فإذا حقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقي**{وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}** (النور، آية: 55) فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدين، وهذا ما رأيته في دولة نور الدين وصلاح الدين.

ب - الأمن والاستقرار:

بعد أن أكرم الله صلاح الدين، بإزالة الدولة الفاطمية وفتح مصر وضم حلب ودمشق، والاتفاق مع الموصل في جبهة إسلامية عريضة تيسر لدولته الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها بشرع الله حيث نجد أن دولة صلاح الدين بعد أن استخلفت ومكن الله لها أعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظ على مكانتها، وهذه سنة جارية ماضية، ضمن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذين ينشدون في أنفسهم وواقعهم فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله ما يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه. قال تعالى:**{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** (الأنعام: 82) فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره.

إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته. إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع، قال تعالى:**{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً}** (النور، آية: 55). وإن تحقيق العبودية لله ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن في النفوس على مستوى الأفراد والشعوب، وهذا ما حدث لصلاح الدين ودولته والمسلمين في عهده لما انقادوا إلى منهج رب العالمين.

ج - العز والشرف:

---

(1) تفسير الجلالين ص 466.

إن عزّ صلاح الدين والأيوبيين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إن من يعتز بالانتساب به تشرف الأمة وبه يعلو ذكرها ووضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ. قال تعالى:**{لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}** (الأنبياء، آية: 10). قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: فيه شرفكم [1]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله" [2]، فعمر رضي الله عنه كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزاً ودُلا، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، ولاذلت في يوم إلا بالانحراف عنه قال تعالى:**{مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً}** (فاطر، آية: 15) يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل [3].. وقال تعالى:**{وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}** (المنافقون، آية: 8) لقد انتصر صلاح الدين والمسلمون في حطين بفضل الله عز وجل الذي طبقوا شرعه.

د - النصر والفتح:

لقد حرص صلاح الدين والمسلمون على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى:**{وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ المُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}** (الحج، آية: 40، 41).

6 - العدل:

إن العدل أساس الملك ولهذا أمر الله رسوله القيام به فقال:**{وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ}** (الشورى: 15) كما قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ}** (النساء، آية: 135). وقال تعالى:**{كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ}** المائدة: 8) وقال تعالى:**{وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}**(النساء: 58) والعدل في الرعية

(1) تفسير ابن كثير (170/3).
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك في الإيمان (62/1).
(3) تفسير ابن كثير (526/2).

وإيصال الحقوق إلى أهلها وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم، وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة، وهو يؤذن بزوال الدول ولهذا حرمه الله على نفسه وجعله محرماً بين خلقه، فقال تعالى في الحديث القدسي: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»**[1]. وقال تعالى:**{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}** (الصافات: 22) وقال تعالى:**{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا}**(النمل: 52).

ومن الحق أن نسجل أن الدولة النورية في عهد نور الدين زنكي والدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي، قد ساد العدل في الرعية، وتم إيصال حقوق الناس إليهم، فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دولتهم [2]. قال القاضي ابن شداد عن صلاح الدين: لقد كان يجلس للعدل في كل يوم إثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد، من كبير وصغير، وعجوز وهرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأخذ بقصته [3].

لقد قام صلاح الدين بالعدل في دولته وترك لنا وقائع ملموسة وتطبيقات عملية مع الأمراء والرعية في المحافظة على حقوق الأفراد وحقوق الدولة، قامت هذه التطبيقات على العدل والإنصاف وأرست هذه القاعدة العدل أساس الحكم والظلم يؤذن بزوال الدولة[4]، كما أن العدل الذي أقامه صلاح الدين في دولته كان من أسباب انتصاره في حطين.

7 - جيل مقاتل في سبيل الله :

لم يظهر جيل صلاح الدين من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول

---

(1) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم 1828.
(2) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 205.
(3) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 13، 14.
(4) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 211.

منهج أهل السنة والجماعة وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في حطين تنطبق فيه كثيراً من صفات الطائفة المنصورة والتي من أهمها:

أ - أنها على الحق:

وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق واتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما استحقت الذكر والنصر، لتمسكها بالحق الكامل حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي استمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

- الاستقامة في الاعتقاد وملازمة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ومجانبة البدع وأهلها، فهم أصحاب السنة وصلاح الدين والمسلمون الذين معه هم الذين قضوا على الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية.

- الاستقامة في الهدى والسلوك الظاهر على المنهج النبوي الموروث عن الصحابة رضي الله عنهم والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة.

- الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحق على العاملين.

- الاستقامة في الحرص على توفير أسباب النصر المادية والمعنوية واستجماع المقومات التي يستنزل المؤمنون بها نصر الله ولا شك أنهم إنما ينتصرون لملازمتهم للجادة المستقيمة من جهة، ولبذلهم الجهد الواجب في تحصيل أسباب النصر - من جهة ثانية، وهذا ما قام به صلاح الدين والقادة الذين معه وبذل الجهد في تحصيل تلك الأسباب هو في الحقيقة - جزء من الاستقامة على الشريعة، إذ الشريعة تأمر بفعل الأسباب واتخاذ الوسائل المادية الممكنة، من الصناعة، والسلاح، والتخطيط، والإدارة وغيرها، ولا يتوهم أن النصر يجيء بدونها، لأن تحقيق ذلك هو مقتضيات الاستقامة على أمر الله [1].

ب - أنها قائمة بأمر الله:

وهذه الخصيصة بارزة جداً في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، واسمهم الطائفة "الطائفة المنصورة"، فقد تميز صلاح الدين بحمل راية الدعوة إلى الله وإلى دينه وشرعه، وسنة نبيه ﷺ، والقيام على نشر السنة بين الناس بكل وسيلة ممكنة مشروع ووظف إمكانات الدولة لذلك ولدفع الشبهات عن منهج أهل السنة، والرد

(1) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين ص 473.

على مخالفيه.

- كما كانت دولة صلاح الدين قائمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد، واللسان، والقلب، معارضة لكل انحراف يقع بين المسلمين، أيًّا كان نوعه: سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو علميا، أو اعتقادياً.

ج - إنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله :

والطائفة المنصورة جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنه "يقاتلون على الحق [1] أو يقاتلون على أمر الله" [2]. وكان صلاح الدين وجيشه قاموا بالجهاد الشرعي في سبيل الله وقتال أعداء الله من الكفار وغيرهم.

س - أنها صابرة:

فقد خصّ الله الطائفة المنصورة بالصبر، وقد رأيت وسوف ترى بإذن الله كيف تسلح صلاح الدين وجنوده بالصبر الجميل في جهادهم ولم تستطع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء القوم بأنهم: لايضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم، ولا يبالون من خالفهم [3]. وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم، فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخذلين ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين [4].

فهذه الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة قد انطبقت على جيل صلاح الدين الأيوبي، وكان صلاح الدين يوصى جنوده بالوصايا النافعة فقد قال - رحمه الله ذات يوم: اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة والله عز وجل، سائلكم يوم القيامة عنهم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن البلاد والعباد غيركم، فإن توليتم - والعياذ بالله - طوى البلاد وأهلك العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعبد الصليب في المساجد وعُزل القرآن منها والصلاة وكان ذلك كله في ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم أموال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم،

---

(1) أبو داود، ك الجهاد، باب دوام الجهاد (11/3) رقم 2484.
(2) مسلم، ك الإمارة، باب قوله: لا تزال طائفة من أمتى (1524/31) رقم 176.
(3) رواه سعيد بن منصور، ك الجهاد رقم 2376 وله طرق تقويه.
(4) صفة الغرباء ص 205.

فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام [1].

8 - الاستعانة بالعلماء واستشارتهم في الحرب والإدارة:

كان صلاح الدين يلازم العلماء، ويجالسهم ويستشيرهم في الحروب والإدارة ويستمع إلى نصائحهم ويقدرها وكان يعتمد على بعضهم في إدارة ممالكه وكان أكثرهم مرافقة له في السراء والضراء وفي حله وترحاله القاضي الفاضل، تأمل حديثه وتحليله لأهم أسباب النصر بعد توفيق الله تعالى حين يقول: ما فتحت البلاد بالعسكر، وإنما فتحتها بكلام الفاضل [2]، فالقاضي الفاضي كان يقدم له الرأي الحصيف، والقول السديد، والقرار الحكيم، وكان يصدفه في الرأي والحرب والمكيدة والسياسة والحكم قال ابن كثير: وكان القاضي الفاضل بمصر يدبر الممالك بها ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه من الأموال، وعمل الأسطول والكتب السلطانية [3].

وقد لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء والفقهاء، وكان يستشيرهم ويأخذ بآرائهم وبعد انتصاره الكبير في حطين رأى صلاح الدين استكمال الجهاد ضد الصليبيين واستعادة المدن الشامية منهم مّرة أخرى، وقد شارك مجموعة من العلماء في هذه الفتوحات يأتي ذكرهم في حينه [4] بإذن الله. فقد استعان صلاح الدين بالعلماء والفقهاء على إعداد الأمة جهادياً مبيناً لهم غاية الجهاد في الإسلام وضرورة الالتزام بها والعمل لها وقد ساهم العلماء مساهمة جوهرية في رفع الروح المعنوية القتالية في حطين وغيرها.

9 - حسن الصلة بالله:

كان صلاح الدين كثير العبادة والدعاء والرجاء في نصر الله وعونه، وكان يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحضهم على الطاعة والعبادة ويتقدمهم في ذلك ويهيئ لهم الفرصة لتزكية النفوس والانشغال بتلاوة القرآن وتدبره وحفظه، وكان حريصاً على صلاة القيام وكثرة الذكر، ويحض أمراءه وجنده على ذلك، فكان رحمه الله يجلس إلى العلماء ويقرأ عليهم القرآن، ويستمع منهم إلى تفسيره، ويجلس إلى أهل الحديث يتفقه عليهم فقه الحديث ويستمع إلى الفقهاء والعلماء وكان يحضر العلماء

---

(1) البداية والنهاية نقلاً عن واقدساه (373/1).
(2) شذرات الذهب (327/4).
(3) البداية والنهاية نقلاً عن دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 198.
(4) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 143.

والفقهاء والمفسرين ليعلموا الجيش كتاب ربهم ويفقهوهم في دينهم ويوثقوا صلتهم بربهم. وكان رحمه الله يأمر جنوده في الخيام أن يقوموا في الليل وأن يذكروا الله ذكراً كثيراً، وكان يتفقد خيام الجند فإذا وجد خيمة غفل أهلها عن القيام والذكر وتلاوة القرآن أيقظهم وذكرهم بضرورة الإكثار من ذكر الله وعبادته وطاعته وهذه الأمور من أهم عوامل النصر على العدو [1].

10 - اللجوء إلى الله بعد الإعداد:

ومن أسباب النصر أنه كان بعد الأخذ بالأسباب يلجأ إلى الله تبارك وتعالى بطلب منه المد والعون، وكان رحمه الله كثير الدعاء واللجوء إلى الله في الملمات وكان في دعائه مخلصاً متضرعاً. قال القاضي العالم المصاحب له في أسفاره وجهاده عن دعائه وحاله في الدعاء: كان يتصدق ويخفي صدقته قبل أن يناجي ربه وهو ساجد فيقول إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية من نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل، ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته، ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول [2]، فسرعان ما يستجيب الله دعاءه ويجعل أمر الصليبيين في اضطراب ويعودون شر مآب بالهزيمة من رب الأرباب، نعم إنه التوكل على الله حق توكله، والدعاء من سويداء القلب إلى ربه وهو القائل سبحانه وتعالى:**{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ}** (الطلاق، آية: 2، 3) وقال تعالى:**{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}** (الطلاق، آية: 3) وقال تعالى:**{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}** (البقرة: 186) وقال تعالى:**{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}** (غافر: 60).

11 - نجاح العمل الاستخباراتي لصلاح الدين:

استطاع صلاح الدين أن يخترق الصليبيين استخباراتياً، فقبيل معركة حطين تمكن صلاح الدين من استمالة زوجة أمير أنطاكية بوهيموند الثالث السيد سيبل، فكانت لها اتصالات سرية مع صلاح الدين الأيوبي وكانت تطلعه على خطط الصليبيين وتحركاتهم أولاً بأول، وذلك في فجر يوم حطين. ويؤكد المؤرخ ابن الأثير هذه الحقيقة، فيقول أن أميرة أنطاكية كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال التي يؤثرها

(1) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 185.
(2) النوادر السلطانية ص 12.

[1] علمها. أما أبو شامة فيقول: وكانت امرأة أبرنس أنطاكية وتعرف مدام سيبل في موالاة السلطان، عيناً له على العدو، وتهاديه وتناصحه، وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا [2]، إن من أسباب الانتصار في حطين إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام جنّب صلاح الدين المفآجَات العدوانية من الصليبيين وقد كتب صن تزو، مشيراً لأهمية ذلك: إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة في كل معركة [3] وقد انعكست عبقرية صلاح الدين في إيجاد شبكة اتصالات ومخابرات متينة ضمن صفوف الصليبيين بحيث كانت أخبارهم وتحركاتهم تصل إليه بسرعة، وباستمرار [4].

12 - الأسباب التي تعود إلى الصليبيين:

كان الصليبيون في معركة منقسمين على أنفسهم في هذه المعركة، فبينما يرى القونص صاحب طرابلس عدم القتال في المكان الذي اختاره صلاح الدين ينبري له أرناط صاحب مملكة الكرك بالاتهام بالجبن والتواطؤ مع المسلمين، والدعاية لهم بقوتهم ويتهمه بأنه يلاين المسلمين لأن زوجته حاصرها صلاح الدين والمسلمون في قلعة طبرية ولهذا نجده ما إن وجد فرصة للهروب هرب ومن معه من أرض المعركة وتركهم في أصعب ساعات القتال، كما ترك زوجه في هذا الوضع الحرج.

- لقد وقعوا في الحيلة التي وضعها صلاح الدين عن غباء وعلم بها، وقد نبههم إليها قونص طرابلس.

- الروح المعنوية التي انهارات من حرب الاستنزاف وفي بداية المعركة والمعارك السابقة التي وجدوا أنفسهم أمام المسلمين، أقوياء الشكيمة لا قدرة لهم على دفع الهزيمة والأذى.

- فسق هؤلاء الصليبيين وفجورهم وانتشار الدعارة فيهم، وأن قسماً كبيراً منهم جاء للنهب والسلب والسفك ظلماً إنهم لا أخلاق لهم، والنصر منهم بعيد على المؤمنين الموحدين المجاهدين.

وفي هذا يقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: ومما يلفت النظر هؤلاء

(1) دور المرأة في الاستخبارات الإسلامية ص 67.
(2) حطين وقائع وعبر، عبد الفتح عاشور ص 45.
(3) الاستخبارات العسكرية في الإسلام ص 311.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 153.

الغزاة لا أخلاق لهم وليس عندهم قيم بل كانوا فجرة أشراراً منحلين فاسقين، وهؤلاء أعداء الحضارة وقتلتها، إذا لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان والدعار والراهبات العواهر [1].

13 - رأيي أبي الحسن الندوي في سر انتصار صلاح الدين:

ألقي الشيخ الندوي كلمة في رابطة العالم الإسلامي جاء فيها:... إن الحل الوحيد لقضية فلسطين أن يبرز صلاح الدين على مسرح القضية الفلسطينية وعلى مسرح الجهاد الإسلامي مّرة ثانية، يقول الزركلي:

هاتي صلاح الدين ثانية فينا ::: وجددي حطين أو شبه حطّينا

.. ماذا كان سّر انتصار صلاح الدين الأيوبي الانتصار الباهر الذي حيَّر العالم، وغيَّر مجرى التاريخ؟ إنما السّرُّ أنه كان مسلماً مؤمناً محمدياً لا يعرف غير لغة القرآن، ولا يعرف غير لغة الإيمان، ولا يعرف غير لغة الجنان والمسلمون ما زالوا ولا يزالون...

إن المسلمين إلى هذا الوقت وإن كانت المادّية الرعناء، والتربية العصرية قد فعلتا فعلتهما فهم لا يفهمون غير لغة القرآن، إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ومهما تعددت لغاتهم، ومهما فاق ذكاؤهم، ومهما فاقت ألمعيتهم، وعبقريتهم إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمد عليه الصلاة والسلام الذي آمنوا به كنبيٍّ خالد وكرافع علم الجهاد المقدس، إنهم لا يفهمون غير لغة القرآن، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن أيها الإخوان لا بلغة السياسة، أثيروا فيهم الحنان، والإيمان، بكلمة الجهاد، بكلمة الحنين إلى الشهادة، إنهم لا يزالون يحسنون فيهم هذه اللغة إنما كان سر سيطرة صلاح الدين على القلوب والأرواح في أنه فهم هذا السر. إن المسلمين لا يندفعون إلا بدافع الجهاد، فجمع تحت رايته الإيمانية أشتاتاً من القيادات، وضروباً وأنواعاً من الشعوب واستطاع أن يوحّد كلمة العالم الإسلامي الممزَّق المتشتت، المنقسم على نفسه، وكيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامي الذي تعدَّدت عناصره وتعدَّدت ثقافاته وتعَّددت مذاهبه الفقهية، كيف استطاع أن يوحّد العالم الإسلاميَّ في هذه الفترة الحالكة العصيبة تحت راية محمد عليه الصلاة والسلام، لم يرفع راية القومية العربية، اسمحوا لي أن أقول: أنا هندي الأصل، أنا هندي الثقافة، أنا رجل ولدت ونشأت في الهند ولكن أؤمن بمحمد عليه الصلاة

(1) حضارة العرب ص 328.

والسلام وأؤمن بالقرآن إنّ هناك قلوباً تعدُّ بالملايين، تهفو، وتصبوا إليكم، وتهين في سبيلكم بأجسامها وحياتها وسلامتها، إن مذبحة كبيرة وقعت في الهند في أحمد آباد في مدة قريبة، وماذا كان السبب؟ ذلك لأجل التجمع الإسلامي الكبير الذي حصل تأييداً لقضية فلسطين، إنما وقعت هذه المجزرة ووقع هذا الاضطراب الطائفي الهائل لأن المسلمين في أحمد آباد تجمَّعوا على بعد الدار، وحيلولة البحار، وعدم معرفتهم للغة العرب، تجمعوا هذا التجمع الخالد التاريخي ليدافعوا عن قضية فلسطين، وذلك برهان ساطع على أن هنالك قلوباً مخلصة لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى، قلوب مؤمنة صادقة لا تعرف لغة السياسة، ولا تعرف لغة اللياقة، إنما تعرف الإيمان، إنما تعرف الحنان إنما تعرف لغة القرآن، فأنتم تملكون ثروة لا تملكها أمريكا ولا تملكها روسيا، تلك ثروة الإيمان، تلك ثروة الإيمان الدافق،... إن هذه الثروة موجودة ولكنها تحتاج إلى إثارة تحتاج إلى تحريك، تحريك صادق مؤمن [1].

رابعاً: ردود أفعال معركة حطين:

1 - فرحة القاضي الفاضل بنصر حطين:

كان القاضي الفاضل غائباً عن نصر حطين بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان: ليهن المولى أن الله قد أقام به الدِّين القيِّم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كل مُسْلم، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه المُلكين: ملك الدنيا وملك الآخرة. كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس إلى الآن لم ترُفع من سجودها، والدموع لم تُمسح من خدودها وكلما فكّر المملوك أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه: إنه واحد جَدَّد لله شُكراً تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جَفْنه،....

تلك المكارم لاقَعْبَانِ من لَبَنِ ::: وذلك الفتح لا عَمَّان واليَمَنِ
وذلك السَّيفُ لا سيفُ ابن ذي يَزنِ ::: وللألسنة بعد في هذا الفتح سبح طويل وقول جليل [2]

2 - من شعر العماد الأصفهاني في حطين:

يا يوم حطين والأبطال عابسة ::: وبالعجاجة وجه الشمس قد عَبسَا
رأيت فيه عظيم الكُفر مُحتقراً ::: معُفَّرا خدُّهُ والأنف قد تَعَسا [3]

(1) محاضرات في الفكر والدعوة (227/2، 228).
(2) كتاب الروضتين (300/3، 301).
(3) كتاب الروضتين (300/3، 301).

يا طُهْرَ سَيْفٍ برى رأس البرنس فقد ::: أصاب أعظم من بالشِّركِ فد نَجُسا
وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه ::: كأنه ضفدع في الماء قد غطس
عرَّى ظُباه من الأغماد مُهرَقَةً ::: دماً من الشِّرك ردَّاهابه وكسا
مَمْ سَيْفُه في دماء القوم منغمسٌ ::: من كلّ من لم يزل في الكُفْرِ مُنْغَمِسا
أفناهم قتلهم والأسرُ فانتكسوا ::: وبيتُ كفرهم من خبثهم كُنِسا [1]

3 - وقال الشهاب فتيان الشَّاغوري:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم ::: يتدامرون على متون الضُّمَّرِ
أوردت أطراف الرِّماح صُدُورَهم ::: فوَلَعْن في علق النَّجيع [2] الأحمر
فهناك لم يُرَ غيرُ نجم مُقْبلٍ ::: في إثر عِفريت رحيم مدبر
فمن الذي من جيشهم لم يُحترم ::: ومن الذي من جمعهم لم يُؤسر
حتى لقد بيْعَت عقائلُ أُرهقت ::: بالسَّبي بالثَّمن الأخس الأحقر
سقت المماليكُ الكرامُ ملوكهم ::: كأساً به سقت اللَّئيم الهنفري
وَعَجَمت عُودَ صَلِيبهم فكسرته ::: وسواك ألفاه صَليب المَكْسَرِ
أغلى الأداهم [2] من أسرتَ وأُرخصت ::: بيض الصوارم من نِهاب العسكر
وجعلت شرق الأرض يحسد غربها ::: بك فهو داعٍ دعوة المستنصر
لا يَعْدَمَنْك المسلمون فكم يدٍ ::: أوليتهم معروفها لم يُنكر
أمَّنت سِرْبَهم وصُنتَ حريمهم ::: ودرأت عنهم قاصمات الأظهُرِ
ما إن راك الله إلا آمراً ::: فيهم بمعروف ومُنكِرَ ومُنْكَرِ
متواضعاً لله جلَّ جلاله ::: وبك اصمحلَّت سطوة المُتكبر
لم يخل سمعاً من هناءِ مُهنِّيءٍ ::: للمسلمين ومن سماع مُبَشِّرِ
واستعظم الأخبار عنك معاشرٌ ::: فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر
مضتِ الملوك ولم تنل عشرِ الذي ::: أوتيتَه من منجح أو مفخر [3]

4 - وقال أبو الحسن علي السَّاعاتي في فتح طبرية:

قال الشاعر:

جَلتَ عزماتك الفتح المُبينا ::: فقد قّرت عيون المؤمنينا
رددت أخِيْذَةَ الإسلام لما ::: غدا صَرفُ القضاء بها ضَمِينا

---

(1) المصدر نفسه (301/3).
(2) الأداهم جمع، مفردها: أدهم.
(2) المصدر نفسه (301/3).
(3) كتاب الروضتين (304/3).

وهان بـك الصـليب وكـان قِـدما ::: يَعُـزُّ علـى العـوالي أن يهونـا
يقاتـل كـلُّ ذي مُلـكٍ ريـاءً ::: وأنـت تقاتـل الأعـداء دينـا
غَـدَتْ في وَجْنَـةِ الأيـام خـالاً ::: وفي جِيْـدِ العُـلا عِقـداً ثمينـاً
فيـا لله كـم سَّـرت قلوبـاً ::: وبـالله كـم أبكـت عيونـا
ومـا طبريـةٌ إلا هَـدِيُّ ::: ترفـع عـن أكُـفِّ اللاَّمسـينا
حصـانُ الـذَّيْلِ لم تُقـذَف بسـوء ::: وسـل عنـها اللَّيـاليَ والسِّـنينا
فَضَضْـت خِتامهـا قَسْـراً ومـن ذا ::: يَصُـدُّ الليـث أن يَلِـجَ العَرينـا
لقـد أنكحتـها صُـمَّ العـوالي ::: فكـان نتاجُهـا الحـرب الزّبُونـا
منـالٌ بـذَّ أهـلَ الأرضِ طُـرَّا ::: سِـوَاكَ ومَعقِـلٌ أعيـا القرونـا
قسـت حـتى رأت كفـؤاً فلانـت ::: وغايـة كـلّ قـاس أن يلينـا
قضـيت فريضـة الإسـلام منـها ::: وصـدّت الأمـاني والظُّنونـا
تَهُـزُّ معـاطف القـدس ابتـهاجا ::: وتُرضـي عنـك مكـة والحَجُونـا
فلـو أن الجمـاد يطيـق نُطقـاً ::: لنادتـك ادخلوهـا آمنينـا
جعلـت صـباح أهليهـا ظلامـاً ::: وأبـدلت الـزَّئير بهـا أنينـا
تَخَـال حُمـاةَ حَوْزَتِهـا نسـاءً ::: بمَوْضُـون الحديـدِ مُقَنَّعينـا
لِبِيْضـك في جَمـاجمهم غِنـاءُ ::: لَذيـذٌ علـمَّ الطَّيـر الحنْينـا
تميـلُ إلى المُثقّفـةِ العَـوَالي ::: فهـل أمسـت رماحـاً أم غُصُـونا
يكـاد النَّقـع يُذْهِلـها فلـولا ::: بُـروُقُ القاضـبات لمـا هُـدينا[2]
فكـم حـازت قُـدودُ قَنَـاك منـها ::: قُـدوداً كالقنـا لونـاً ولينـاً
وغيـداً كالجـاَذر [1] آنسـانٍ ::: كغيـد نـداك أبكـاراً وعُونـا

وقال أيضاً:

فـلا عَـدِمَ الشـامُ وسـاكنوه ::: ظـبىَ تَشْـفى بهـا الـداء الـدَّفينا
سُـهادُ جُفُونهـا في كـلّ فـتْح ::: سُـهادُ يمـنح الغُمـضَ الجفونـا
فـألِم بالسَّـواحِل فهـي صـور ::: إليـك وألحـق الهـام المُتُونـا
فقلـب القـدس مسـرورُ ولـولا ::: سُـطاك لكـان مكتئيبـاً حزينـا
أدَرْتَ علـى الفـرنج وقـد تلاقَـتْ ::: جُمـوعُهُمُ عليـك رحـىً طحُونـا
ففـي بيسـان ذاقـوا منـك بُؤسـاً ::: وفي صـفد أتـوك مُصَـفَّدينا
لقـد جـاءهم الأحـداث جمعـاً ::: كـأن صـروفها كانـت كمينـا

(1) الجاَذر جمع الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. آنسات جمع مفردها آنسة وهي الطيبة النفس التي تحب قربك وحديثك.

(2) كتاب الروضتين (305/3).

وخـــــانهم الزمـــــان ولامَـــــلامٌ ::: فلســـت بمُـــبغض زمنـــاً خَوُونـــا
لقـــد جَـــرّدت عزمـــاً ناصـــرِّياً ::: لـــــه هَـــوَتِ الكواكـــبُ ســـاجدينا
لقـــد اتعبـــت مـــن طلـــب المعـــالي ::: وحـــاول أن يســـوس المســـلمينا[1]

5 - رؤى عجيبة:

كانت والدة السلطان صلاح الدين تخبر أنها أُتيت في نومها وهي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفاً من سيوف الله تعالى [2].

6 - فتوحات الساحل قبل فتح القدس:

بعد أن منّ الله على صلاح الدين الأيوبي بالنصر المظفر على الصليبيين في معركة حطين الخالدة، والتي كانت بمثابة "مفتاح الفتوح الإسلامية" [3] في المنطقة أراد تتويج جهاده العظيم بتحرير المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها، إلا أنه لم يتوجه نحو مدينة بيت المقدس مباشرة، وإنما اختار التوجه نحو الساحل لفتح المدن والحصون والقلاع الصليبية المنتشرة هناك وذلك لعدة أسباب منها:

أ – أن قيامه بالهجوم مباشرة على المدينة المقدسة سيؤدي إلى استنفار كافة القوات الصليبية في المنطقة، فتجتمع في حربها ضده مما قد يصعب ويؤخر عملية التحرير.

ب – أن فتح المدينة من قبل صلاح الدين قد يحدث قلقاً شديداً لدى العالم الغربي الذي ربما يؤدي إلى اندفاعه بكل قوة [4] لمحاربته.

ج – كذلك لعلمه بقوة التحصين التي فرضها الصليبيون على هذه المدينة داخل الأسوار وخارجها.

س – أراد بتوجهه نحو مدن الساحل أن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وبخاصة الغرب الأوروبي، فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام.

ش – كما أنه أراد أيضاً تسهيل الاتصال البحري السريع بين موانئه البحرية الموجودة على الساحل المصري وبين تلك الموانئ المنتشرة في الساحل الشامي [5].

---

(1) كتاب الروضتين (306/3).
(2) المصدر نفسه (307/3).
(3) مفرج الكروب (88/2).
(4) سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ص 305.
(5) صلاح الدين وتحرير القدس علية المهتدي ص 124.

لذلك كله قام صلاح الدين بالتوجه إلى المواقع الصليبية المنتشرة على الساحل ضمن خطة تكفل استنزاف قواتهم وتمنع وصول الإمدادات إليهم من أوروبا [1].

في يوم الأحد 25 ربيع الآخر سنة 583هـ/5 تموز 1187م نزل صلاح الدين على طبرية، واستولى على قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء يرتب أمورها، ثم ولاها لصارم الدين قايماز النجمي [2] وفي يوم الأربعاء 8 تموز 1187م تقدم صلاح الدين نحو عكا [3] وما أن وصلها حتى خرج إليه أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وخيّرهم بين الإقامة والرحيل فاختاروا الرحيل، فدخلها الجيش الأيوبي، يوم الجمعة، جمادى الأولى 583هـ [4]، واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر وأطلقوا سراح من كان بها من الأسرى المسلمين، وكانوا أربع آلاف دون أن يلحقوا أذى بأهل البلد، أو بالتجار البنادقة والبيازنة [5]، فكان لهذه السياسة السمحة التي اتبعها صلاح الدين فوائد كثيرة، حيث ساهمت في تسهيل مهمة فتح مدن الساحل دون مقاومة كبيرة نتيجة لما حدث في عكا، كما حافظت سياسته تلك على استمرار الحياة الاقتصادية في المدينة بعدما لمسه التجار الغربيون من عدله وسماحته [6].

وأقام صلاح الدين في مدينة عكا لفترة من الوقت، حيث اتخذها مركزا لانطلاق جيوشه لفتح المعاقل القريبة مثل الناصرة، قيسارية، حيفا، صفورية، الشقيف، الفولة، الطور وغيرها من البلاد المجاورة [7]، حيث استولى عليها. ثم جرى الاستيلاء على مدينة نابلس، وتم إقرار أهالي البلدة على أموالهم وأملاكهم لأنهم كانوا مسلمين، وقد مكثوا في المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها [8] كما تم فتح كل من صيدا وبيروت ومنطقة جبيل، وقرر صلاح الدين أن يكون فتح مدينة صور بعد فتح بيت المقدس ولذلك أراد التوجه نحو عسقلان لأن أمرها أيسر [9]، ولأنها تقع في ملتقى الطرق، بين بلاد

(1) صلاح الدين وتحرير القدس - ص 124.
(2) كتاب - الروضتين (79/2)، مفرج الكروب (196/2).
(3) عكا: مدينة واسعة كثيرة الضياع ولها مرسى مأمون حيث ترسو.
(4) النوادر السلطانية ص 79.
(5) سياسة صلاح الدين ص 297.
(6) صلاح الدين وتحرير القدس ص 125.
(7) مفرج الكروب (202/2).
(8) المصدر نفسه (202/2، 203).
(9) النوادر السلطانية ص 80، صلاح الدين وتحرير القدس ص 126.

الشم ومصر [1].

وفي طريقه إلى عسقلان استولى على الرملة وحصن تبني وبيت لحم والخليل، واستسلمت له عسقلان في رجب سنة 583هـ/أيلول سنة 1187م [2]. كما فتح مدن غزة، والداروم وأرسوف والنطرون، وبيت جبريل، كما زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، وبذلك سقطت المدن والحصون الداخلية ما عدا الشوبك والكرك اللتان بقيتا على المقاومة وهكذا دخل الساحل برمته تحت إمرة صلاح الدين، من بيروت إلى يافا ما عدا مدينة صور التي دخلها المركيز "كونراد دي مونتفران". في ذلك الوقت، وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال، فشرع بتحصين المدينة، وتجديد حفر الخندق استعداداً لملاقاة صلاح الدين [3]، وخصوصاً وأن الجيوش الصليبية التي خرجت من مدن الساحل قد تجمعت جميعها في مدينة صور، بعد أن ترك لها صلاح الدين حرية الاختيار بين الرحيل إلى بيت المقدس أو مدينة صور، فقصد معظمهم صور[4].

خامساً: نتائج معركة حطين:

1 - معركة فاصلة وحاسمة:

توصف معركة حطين، بأنها معركة فاصلة وحاسمة، لأننا نلاحظ أنها غيرت خريطة التوزيعات السياسية في المنطقة، ففي أعقابها اتجه ذلك السلطان المجاهد إلى فتح مدن الساحل الشامي، وتساقطت الواحدة تلو الأخرى باستثناء صور ذات المنعة والحصانة، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامي الذي طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ولم يعد المسلمون أصحاب وجود بري حبيس، وهكذا تساقطت مدن عكا، ويافا وصيدا وبيروت، وجبيل وعسقلان وغيرها، والواقع أن من يطالع نصوص المصادر التاريخية لذلك العصر تتملكه الدهشة من موجة سقوط المدن الصليبية بصورة غير مسبوقة عكست التفوق العسكري الساحق للمسلمين ضد أعدائهم [5]، كما تهاوت القلاع الصليبية التي طالما أغارت على مناطق المسلمين [6]، وأحالت حياتهم أحياناً إلى جحيم، ومن أمثلة القلاع التي تهاون أما فعاليات الجيش الأيوبي نذكر طبرية، صفد، هونين،

---

(1) صلاح الدين وتحرير القدس ص 126.
(2) النوادر السلطانية ص 80، 81 صلاح الدين وتحرير القدس ص 126.
(3) مفرج الكروب (208/2، 209).
(4) صلاح الدين وتحرير القدس.
(5) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 219.
(6) انظر: النوادر السلطانية ص 89 - 96.

تبنين، بغراس، دربساك، حجر شغلن، القصير، وغيرها كثير ومن بعد ذلك جاء فتح المسلمين لبيت المقدس عاصمة الكيان الصليبي [1].

2 - بداية النهاية للوجود الصليبي:

كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية، حلّت بالصليبيين، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية، شهدها العالم في العصور الوسطى، كما شكّلت حداً تراجع عنده المدُّ الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي وبداية النهاية للوجود الصليبي [2]، وقد أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى؛ لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر في مواجهة كل الأخطار. لقد أسست حطين بداية جديدة لموازين القوى وأكدت أن قوة الفرنج يمكن أن تقهر وقد كشفت الدراسات التاريخية الحديثة التي بحثت تفاصيل تلك المرحلة أن معركة حطين انتهت بانتصار صلاح الدين لكنها لم تقتلع نهائياً وجود الفرنج، فهي استراتيجياً معركة فاصلة بين حدين أي أنها ختمت مرحلة التراجع والهزائم وأسست مرحلة الانتصارات والتقدم وشقت الطريق الطويل والصعب الذي شهد الكثير من الصعود والهبوط والهجوم والهجوم المضاد إلى أن تم خلخلة مواقع الفرنج وتفكيك ممالكهم وطردهم من المنطقة [3].

3 - ارتفاع قدر صلاح الدين:

من أسماء الله عز وجل الرافع فقد كانت معركة حطين من الأسباب التي رفع الله بها صلاح الدين وأصبح في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس، والكرامة التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود [4] وقد كان لهذا النصر صدى بالغ في نفوس المسلمين بعامة وأهالي دمشق بخاصة، لأن دمشق كانت آنذاك مركز أعماله ومقّره وفيها قضاته وكُتّابه، الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله، وقائمين يدعون لـه بالنصر على أعدائه ولما علموا بالانتصار، عبَّروا عن فرحهم بالدموع والكلمات المؤثرة التي تضمنت عبارات الشكر والحمد لله [5].

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 220.
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر ص 53.
(3) المصدر نفسه ص 153.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 154.
(5) مفرج الكروب (188/2).

4 - معركة حطين مفتاح بيت المقدس:

كانت معركة حطين معركة تحرير فلسطين لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، وباقي فلسطين، وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله: كانت وقعة حطين مفتاح الفتوح الإسلامية وبها تيسر فتح بيت المقدس [1]، وعدّها حلقة وسط بين فتوحات نور الدين محمود وركن الدين بيبرس البندقاري منذ وفد ملوك الفرنج البلاد الساحلية، واستولوا عليها، لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين، فرحم الله الملك الناصر، وقدّس روحه، فلم يؤيَّد الإسلام بعد الصحابة رضي الله عنهم، برجل مثله ومثل نور الدين [2] محمود بن زنكي، رحمة الله عليهما، فهما جدّدا الإسلام بعد دوسه، وشيَّدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر ركن الدين بيبرس، وكان أمره أعجب، إذ جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الإسلامية، وأيس الناس أن لا انتعاش للمّلة فبّدد شمل التتار، وحفظ البلاد الإسلامية، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية [3].

5 - أهمية الوعي الجغرافي:

أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي، واستثمار ميّزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية، ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلّت أهمية أرض فلسطين التي تُعُّد بمثابة الجسر أو المعبر الذي يوصل بين بلاد الشام ومصر [4].

6 - هيبة صلاح الدين ممزوجة بالإعجاب والإجلال:

غدا لاسم صلاح الدين بعد الانتصار، من الرهبة في قلوب، الصليبيين الممزوجة بالإعجاب والإجلال، نظراً لما اتصفت به فتوحات من النُّبل والشهامة والمروءة، كما كان لتسامحه معهم، وحسن معاملته لأسراهم، أثر كبير في استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تُذكر. والواقع أنه أظهر رحمة وفروسية كبيرتين في تعامله مع الصليبيين، وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر وتجنبت

---

(1) أين عمر بن عبد العزيز رحمه الله.
(2) مفرج الكروب (193/2) مبالغة أين عمر بن عبدالعزيز.
(3) تاريخ الأيوبيين ص 154.
(4) المصدر نفسه.

ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة في ذلك الوقت، ففي معرض الحديث عن مروءة صلاح الدين لزوجات وبنات الصليبيين [1] كتب أرنول: لقد أعطهَّن الكثير لدرجة أنهن حمدن الله، ونشرت في الخارج الكثير عن العطف والإجلال اللذين أسداهما لهن صلاح الدين. كما أكرم إسكيفا، زوجة ريموند الثالث، فسمح لها بأن تخرج من قلعة طبرية بالأمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها وسارت إلى طرابلس، وكان بالبان الإبليني من بين الأمراء الناجين، وكانت زوجته وأولاده في بيت المقدس، فسمح له صلاح الدين بالذهاب إلى المدينة لإخراج زوجته وأولاده، واشترط عليه ألا يبيت فيها أكثر من ليلة واحدة [2]. ولقد وقف الغرب الأوروبي وبخاصة فرنسا موقف الإعجاب والمدح لصلاح الدين، حتى تحَّول في المؤلفات الأدبية الأوروبية إلى ما يشبه الأسطورة التي خرجت عن إطار التاريخ الواقعي والموضوعي [3] وقد أضاعت خسارة الصليبيين في حطين هيبة مملكة بيت المقدس وبخاصة بعد أن أُسر ملكها جاي لوزينان ونقص عن المعركة نقص ملموس في الفرسان المحاربين، بعد أن سقط معظم فرسان الصليبيين، وغالبية جيش بيت المقدس بين قتلى وأسرى، فمن شهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل [4].

7 - الجهود التراكمية التي سبقته :

لم تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ولم تكن النتائج العسكرية التي حققها من دون مقدمات سياسية وتنظيمية وإدارية وإصلاحية وإحيائية امتدت على أكثر من قرن إلى أن بدا قطفها ثمارها في عهدي عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي والأخير يعتبر المؤسس الحقيقي للتحولات الكبرى التي شهدتها بلاد الشام ثم مصر، فقد عرف نور الدين محمود بانتصاراته العسكرية وأعماله الإصلاحية الإحيائية وإنجازاته الشرعية، فقد اشتهر ببناء المدارس ومعاهد التربية والتعليم، واهتم بالقضاء وبتشييد المساجد والحصون ونشر العلم في حلب ودمشق ومختلف مدن الشام وفي عهده استعاد القضاء دوره الشرعي والتاريخي وبنى دار للعدل وشجع العلماء والفقهاء على لعب دورهم في الإعداد النفسي للقوات وتبليغ الرسالة وتعليم أصول اللغة والفقه والحديث لقادة جيوشه. وفي هذه الأجواء العلمية تلقى صلاح الدين دروسه وتربيته الدينيه فتعلم على يد المحدث

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 155.
(2) المصدر نفسه ص 155.
(3) المصدر نفسه ص 115.
(4) المصدر نفسه ص 115.

أحمد بن محمد الأصبهاني، والواعظ علي بن إبراهيم بن نجا ونجم الدين الحبوشاني، وهؤلاء جزء من الفقهاء والعلماء الذين أشرفوا على تربية الجيل الثالث من القيادات السياسية والعسكرية الذي كان له شرف إنزال الهزائم بقوات الفرنجة بعد مئة سنة من المواجهات المتقطعة، فصلاح الدين لم يصنعه نفسه، بل وفقه الله تعالى - ثم هو نتاج تاريخي وموضوعي لسياق من التقدم بدأ مع بدء الحركة الإصلاحية الدينية [1]، التي تزعمها نظام الملك في عهد السلاجقة والتي كان من رموزها الإمام الجويني، وأبو إسحاق الشيرازي والغزالي وغيرهم، ولقد آتت تلك الجهود ثمارها والتي كان من أهمها معركة حطين وفتح بيت المقدس على يدي صلاح الدين.

* * * * *

(1) صلاح الدين الأيوبي وسقوط القدس وتحريرها ص 79، 78.